أثر الكتاب في حياتنا

مختار من مجلة دعوة الحق

إعداد :

السيد: محمد بن علوي العيدروس (سعد)


بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

بدأ نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله تبارك وتعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ﴾ (العلق:١-٣)

وسينتهي مصير كل شخص منّا بأن يقرأ كتابه، ويُقال له:﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤ ﴾ (الإسراء:١٤)

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ (الإسراء:٧١)

وأقسم الله تبارك وتعالى بالقلم الذي به تكون كتابة ما يقرأ، فقال تعالى: ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ ﴾ (القلم :١)

وقد قيل قديماً : أمةٌ تقرأ أمةٌ ترقى ، ومفهومها أمةٌ لا تقرأ لا ترقى ولا تبقى ، بل تهبط وتنهار في الحضيض والهون.

فعندما عزف شبابنا اليوم عن القراءة واستبدلوا الكتاب بغيره ، صارَ شباباً تافهاً لا معرفة ولا علم عنده ولا همة له ، أسأل الله أن يعيد للكتاب مكانته ، فهو خير جليس وأنيس. وقد كتبت سابقاً بعنوان (الحث على القراءة) فليرجع إليه الراغب.

وهذا موضوع عن أثر الكتاب في حياتنا مختاراً من مجلة دعوة الحق ..

وقد اختصرت وعلقت على بعض عباراته والغرض الفائدة ورفع الهمة وإعادة دور الكتاب ووظيفته في حياتنا.

أسأل الله أن يتقبله خالصاً لوجهه الكريم.

محمد بن علوي العيدروس

تريم – النويدرة

١٧/ ربيع الثاني/ ١٤٣١هـ

١/ ٤/ ٢٠١٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

أثر الكتاب في حياتنا الثقافية :

أول ما يلفت نظر الزائر في أوربا وأمريكا عندما يستخدم القطار أو أية وسيلة نقل أخرى ، عكوف الركاب كبيرهم وصغيرهم على القراءة ، فهم لا يكادون يضيعون ثانية من هذا الوقت الذي يستغلونه ، ويجدونه أفضل مناسبة لمطالعة الصحف اليومية ، ولو كانت المسافة التي يقطعونها بين البيت ومكان العمل قصيرة لا تستهلك كثير وقت ، أما المسافات الطويلة فيتغلبون عليها بقراءة الروايات والقصص وغيرها.

والذي يدهشنا أكثر هو انتشار المكتبات العامة ، الثابتة منها والمتنقلة وتعدد الدور التي تبيع الكتب .

واهتمام الدول في إصدار طبعات شعبية لبعض الكتب الثمينة حتى يتمكن كل إنسان من اقتنائها ومطالعتها.

كثيراً ما نتساءل: ما سبب عكوف سكان أوروبا وأمريكا على المطالعة وانصرافنا نحن العرب عنها ؟ علماً بأن انتشار وسائل الإعلام الحديثة من فضائيات وانترنت وإذاعة وسينما أكثر بكثير مما هو عندنا ..

في الواقع أن الطفل عندهم منذ أن يفتح عينيه على الحياة يجد نفسه محاطاً بكل الوسائل التي تشده إلى الكتاب ، ذلك لأنه يندر أن نجد بيتًا خالياً من رفوف الكتب والمجلات الأدبية والعلمية والثقافة التي توسع آفاق الإنسان ، وتجعله يعيش ماضي هذا العالم وحاضره ومستقبله بالإضافة إلى ما في المطالعة من متعة وسعادة لا تضاهيها أية متعة وسعادة أخرى .

إن متعة الكتاب دائمة، فنحن نستطيع الرجوع إليه في أية لحظة نشاء، في الليل والنهار جالسين أو واقفين ماشين أو على الطعام.

إن القراءة(١) مهارة تشبه السباحة والرياضة، وبمجرد أن نلم بفنون القراءة، ونعتاد على ممارستها، فإن سرعتنا فيها لابد أن

---

(١) تعلم القراءة شيء مرغب فيه شرعاً، لكن السؤال ماذا نقرأ؟
إن القراءة تجعل المرء يقول: قل لي ماذا تقرأ أعرف من أنت!
فالمسلم يهتم بقراءة ما رغب الشرع في قراءته وهو يشمل الأمور التالية:
١- القرآن الكريم، وقد جاء في الحديث عن عَبْدِ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا لَا أَقُولُ الم حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ)
٢- القراءة لكتب العلم الشرعي.
٣- القراءة للثقافة والأدب. وهي تشمل: القراءة لتوسيع المدارك العلمية، في التخصصات أو الجوانب المختلفة من المعرفة. كذلك القراءة لتنمية الموهبة والقدرة على البحث والاستقراء. كذلك القراءة للتسلية، وحفظ الوقت، بما يفيد، وتنشيط الذهن وراحته . كذلك القراءة لمعرفة التاريخ الحديث أو القديم وأخذ العبرة مما كانوا عليه فقد ذكر عباس محمود العقاد في كتابه "مطالعات في الكتب والحياة" أن القراءة تزيد في عمق العمر للإنسان، فالإنسان الذي عمره ستون سنة لا يزيد عمرة ثانية واحدة بالقراءة، ولكن يزيد عمق هذه الستين سنة، فيطوي داخلها خلاصة تجارب وأعمال وتفكير أناس كثر يسر الله له مطالعة كتاباتهم أو ما كتب عنهم.

تنمو، كما لابدِ أن يزيد فهمنا لما نقرأ ، ومن الأمور الهامة في حياتنا أن نكون قادرين على القراءة الجيدة ، وبذلك نحرز نجاحاً في أعمالنا، وفي الفنون المتعلقة بكياننا كبشر .

كثيراً ما يكتفي المتخرجون من الجامعات بالمعلومات التي تلقوها خلال سني دراستهم فيقفون عندها دون طلب الزيادة، بحجة أن أمور الحياة لا تدع لهم مجالاً للقراءة، ولكنهم نسوا أن الفكر بحاجة إلى غذاء يومي كالمعدة ، وإلا تحجرت أذهاننا، وتصلبت معلوماتنا، وتقوقعت أفكارنا، خاصة أن الحياة تقدم لنا كل يوم بل كل ساعة شيئاً جديداً بحكم سنة التطور، ومتابعة الإنسان البحث والتنقيب في شتى المجالات ، جديداً في العلم وجديداً في الاختراع، وجديداً في الفن ، وجديداً في الأدب ، سواء كنا أطباء أم محامين ، أم مدرسين أم مهندسين، أم جنوداً أم موظفين، فإننا بحاجة ماسة إلى القراءات اليومية الدائمة في ساعات الصباح الباكر، حيث يكون الذهن نشيطاً وصاحياً،

وبعد تناول طعام الغداء قبل القيلولة، وفي الليل عندما يخيم الصمت وتلف السكينة الكون، قبل أن نسلم أعيننا لنوم هادئ عميق إذ لاشيء يحمل النوم إليها مثل الكتاب الذي يجب أن يبقى تحت الوسادة، أو في متناول أيدينا ونحن نضطجع فوق أسرتنا في ساعات الليل الأخيرة .. إنها لحظات لا أحلى ولا أجمل، فقد نام كل ما في الكون، وهدأت الحركة ، واختفى الضجيج الذي يثير الصغار في الداخل ووسائط النقل في الخارج.

أننا هنا نجد في الخلود إلى الكتاب لذة هانئة ما بعدها لذة، ولا ننسى أننا كلما قرأنا حصلنا على مزيد من المعلومات، وكلما نمت قدراتنا على القراءة المثمرة. واليوم الذي لا تزيد فيه حصيلتنا الفكرية يجب أن لا نعده من حياتنا.

ويصف الجاحظ الكتاب بقوله: ((الكتاب نعم الذخر والعقدة، ونعم الجليس والعدة، ونعم النشر والنزهة، ونعم المستقبل والحرفة، ونعم الأنيس ساعة الوحدة، ونعم المعرفة ببلاد

الغربة، ونعم القرين والدخيل، ونعم الوزير والنزيل.. الكتاب وعاء ملئ علماً، وظرفاً حشي ظرفاً، وإناء شحن مزاحاً ووجداً، إن شئت كان أبين من سحبان وائل ، وإن شئت ضحكت من نوادره ، وإن شئت عجبت من غرائب فوائده ، وإن شئت ألهتك طرائفه ، وإن شئت أشجتك مواعظه ، ومن لك بواعظ مثله ، وزاجر مغر، وبناسك فاتك ، وبناطق أخرس، وببارد حار.. فمتى رأيت بستاناً يُحمل ردن ، وروضه تقلب في حجر ، وناطق ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء ، ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك ، ولا ينطق إلا بما تهوى ، آمن أهل الأرض وأكتم للسر من صاحب السبر وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة)) .

ثم يبين الجاحظ أن الإنسان ينسى الكلمة، أما الكتاب فلا ينسى ولا يبدل كلام بكلام، وهو الذي يطيعك في الليل كطاعته في النهار، ويطيع في السفر كطاعته في الحضر، ولا يقبل النوم، ولا

يعتريه كلل السهر، وهو المعلم الذي أن افتقرت إليه لم يخذلك، وان قطعت عنه المادة، لم يقطع عنك الفائدة ، وإن عزلت لم يدع طاعتك، وإن هبت ريح أعاديك لم ينقلب عليك، ومتى كنت منه متعلقاً بسبب أو معتصماً بأدنى حبل كان فيه غنى من غيره، ولم تضطرك وحشة الوحدة إلى جليس السوء، ويكفي الكتاب فضلاً أنه يمنعك من الجلوس ببابك والنظر إلى المادة نظرات فيها شيء من الفضول.. وهو عنده أفضل من القصور المبنية بالحجارة لأنها تهدم والكتاب لا يهدم.

هذا الكتاب الذي وصفه لنا الجاحظ في القرن التاسع الميلادي أصبح في القرن الحادي والعشرين مهدداً بالإهمال، ويعلوه الغبار فوق رفوف المكتبات، قل من ينقب عنه، رغم ما فيه من مادة جذابة مشوقة وإخراج أنيق ، وطباعة مغرية لأن الفضائيات والانترنت والسينما والإذاعة وصحف الأخبار اليومية والمجلات الرخيصة المائعة راحت تنذره ، فهّب الكاتب الفرنسي

جورج ديهاميل للدفاع عنه مبيناً واقعه بقوله: ((الكتاب مهدد مستقبله لا بالمكروب، بل بانصراف جماهير البشر عنه، فهل هذا لأن الجماهير الآن أقل حباً للإطلاع منها في القرون الماضية، أو انها أقل تعطشاً للمعرفة؟ لست أقول شيئاً عن ذلك، ولكني أقول أن الجماهير البشرية أخذت تُشبع شيئاً فشيئاً حاجتها للمعرفة دون الرجوع للكتاب فالرجل المتوسط في الأعم الأغلب لا يجد وقتاً متسعاً، ولا مالاً كثيراً، ولا عزماً مثابراً ليرضي حاجاته الروحية فقدرته على الانتباه والاطلاع قد استغرقتها عدة آلات قوية الأثر، نافذة الاستهواء كالراديو والسينما تشغل من يوم إلى يوم مكاناً أكبر لا في وسائل تسلية رجل القرن العشرين فحسب، بل في ظواهر تكوينه الظاهرة، إذ تختلط الأخبار بالمعارف والتسلية بالعلم اختلاطاً مخيفاً في نفس الرجل المتوسط)).

ويعلن جورج ديهاميل قلق قادة رجال الفكر في العصر الحديث من هذه الظاهرة الخطيرة، ويخشى كما يخشون من أن

الإنسانية ستحتفظ بتراثها لا في المكاتب بل على اسطوانات من (الباغة) أو في أشرطة من الفراء .

والسؤال الذي يحير ديهاميل هو : هل الباغة والفراء آمن على نقل معارفنا وأصلب مقاومة من الورق أم لا ؟ وهل الخير لمستقبل عبقرية البشر أن نحل محل الكتاب -صديق الوحدة- عدداً من الأدوات الصالحة صلاحاً خطراً لأن تخلق عقلية القطيع التي يخلقها الراديو والسينما والتلفزيون ؟..

ما الفرق بين ثقافة الراديو وثقافة الكتاب ؟ بكلمات نجيب :

الأولى ثقافة عابرة آنية سريعة لا تستقر في أعماق النفس ، والثانية مطمئنة فيها قابلية الرسوخ وإمكانية الاستقرار .

قارئ الكتاب يقف في كل حين ليفكر حين أو ليحاول أن يعود فيتناول الفقرة من جديد ، يقرأها مرة ثانية وثالثة ورابعة بل عاشرة، وهذه الطريقة لا تتفق وفنون الحركة ، فإننا عندما نسمع

سيمفونية أو نشاهد تمثيلية لا نستطيع أن نعود إليها ، في حين أن الكتاب يمكننا من التفكير تفكيراً ضرورياً، فإن كان الكتاب جيداً عدنا إلى قراءته من جديد، والنظر عن قرب في بعض التفاصيل.

كثيراً ما نسمع تمثيلية من الراديو، أو نشاهدها على الشاشات أو التلفزيون ثم يصادف أن تقرأها هي بالذات في كتاب ، فنجد فارقاً عظيماً بين اللذة البطيئة الهادئة التي حملها إلينا الكتاب، واللذة العارضة التي عبرت أفق أنفسنا ثم انطفأت بانطفاء المشهد أو بانقطاع الصوت.

من المحتمل أن نعود بعد سماع الراديو أو مشاهدة الفيلم إلى الكتاب لاستدراك الجزئيات والتفاصيل التي لم يتح لنا أن نعيها بسبب انصرافنا الطارئ إلى حاجة ما .. لكن هذا الاحتمال ضعيف إذ أن في طبيعة الراديو الجارفة - التي تشبه النهر - ما لا يساعد على التفكير ، أي على الثقافة الحقيقية، فهو والسينما

يقدمان أشياء مسرفة في الكثرة، لا نشعر معها برغبة في أن نحقق أو نختبر أو نكمل، بل ولا في أن نفهم ، وإنما نأخذ منهما ما نأخذ خطفاً وكيفما اتفق، وأما ما يفوتنا فليفت، وليس هذا من منهج الثقافة.

إن ثقافة الراديو والسينما والتلفزيون تطبع الناس جميعاً بثقافة واحدة معينة لا تكاد تختلف من فرد إلى آخر ، أما الكتاب فهو يغذي الفردية المحررة ، فالرجل عندما يقرأ إنما يختار مادته ، وهو إذ يختارها يفلت من القوى التي تحاول أن تطويه تحت مذهب ما، والراديو على العكس، وأداة لروح السيطرة ، فهو لا يطهر الإنسان ، ولا يصرفه كالكتاب إلى الوحدة المقدسة. أنا لا أقول أن تتركوا الراديو والسينما والتلفزيون، بل اعتزلوها كل يوم ساعات لتقرؤوا أو لتفكروا إن أراد كل واحد منا أن يجد روحه وأن يقويها.

كلمة أخيرة أقولها لهواة هذا الثلاثي الشاغل هي إن الكتاب يجب أن يسكن معنا في بيوتنا ، وأن نعتبره واحداً من أفراد أسرتنا ، لا غازياً معتدياً ولا ضيفاً من ثقلاء الظل.

يقول أمين الريحاني : ((إن بيتاً يحوي مكتبة بقصد العلم لا بقصد التزيين لهو بيت يشرف صاحبه وأمته)).